تفسير سورة مريم

الجزء الرابع

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فيقول الله -تبارك وتعالى -في هذه السورة الكريمة سورة مريم:

المعنى الإجمالي من آية34 إلى آية 45:

يقولُ الله تعالى لرسولِه محمدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم: ذلك هو عيسى بنُ مريمَ، وتلك حقيقتُه، قولَ الحَقِّ الذي شَكَّ فيه اليهودُ والنَّصارى. لا يليقُ بالله تعالى أن يتَّخِذَ مِن عبادِه وخَلْقِه ولَدًا، تنزَّه وتقدَّسَ عن ذلك، إذا قضى أمرًا فإنَّما يقولُ له: «كُنْ»، فيكونُ كما شاءه وأرادَه.

ويخبرُ تعالى أنَّ عيسى عليه السلامُ قال لِقَومِه أيضًا وهو في مهدِه: إنَّ اللهَ ربِّي وربُّكم، فاعبدُوه وَحدَه لا شريكَ له، هذا طريقٌ قَويمٌ لا اعوِجاجَ فيه، مَن سلَكَه اهتَدَى.

يبيِّنُ الله سبحانه موقفَ أهلِ الكتابِ مِن عيسى عليه السلامُ، فيقول تعالى: فاختَلَفت اليهودُ والنَّصارى في أمرِ عيسى عليه السَّلامُ؛ فمنهم غالٍ فيه وهم النَّصارى، ومنهم جافٍ عنه وهم اليهودُ، قالوا: إنَّه -حاشاه- ابنُ زنا؛ فوَيلٌ للَّذينَ كَفَروا مِن شُهودِ يومِ القيامةِ العَظيمِ الهَولِ، ما أشدَّ سَمعَهم وبصَرَهم يومَ القيامةِ! لكنِ الظَّالِمونَ اليومَ في هذه الدُّنيا في ضلالٍ واضحٍ عن الحَقِّ.

ثم يأمرُ الله تعالى نبيَّه محمدًا صلَّى الله عليه وسلَّم بأن يخوِّفَ المشركينَ مِن أهوالِ يومِ القيامةِ، فيقول تعالى: وأنذِرْ -يا مُحمَّدُ- النَّاسَ يومَ النَّدامةِ حينَ يُقضى الأمرُ، ويُحكَمُ بينَ العبادِ، وهم اليومَ في هذه الدُّنيا في غَفلةٍ عمَّا أُنذِروا به، وهم لا يُؤمِنونَ باللهِ ولا بالبَعثِ والجَزاءِ في الآخرةِ.

ثم يذكرُ سبحانه ما يدلُّ على كمالِ قدرتِه، وشمولِ مُلكِه، فيقولُ: إنَّا نحن الوارِثونَ للأرضِ ومَن عليها، وإلينا مَصيرُهم، فنُجازيهم على أعمالِهم.

يذكرُ الله تعالى جانبًا مِن قصةِ إبراهيمَ -عليه السلامُ-، ودعوتِه لأبيه، وما دار بينَهما مِن حوارٍ، فيقولُ: واذكُرْ -يا محمَّدُ- لقومِك في هذا القرآنِ قِصَّةَ إبراهيمَ -عليه السَّلامُ-: إنَّه كان كثيرَ الصِّدقِ، وكان نبيًّا رفيعَ المنزلةِ؛ إذ قال لأبيه: يا أبتِ، لماذا تَعبُدُ ما لا يسمَعُ ولا يُبصِرُ ولا يدفَعُ عنكَ شيئًا من دونِ الله؟! يا أبتِ، إنَّ الله أعطاني مِن العِلمِ ما لم يُعطِك، فاتَّبِعْني إلى ما أدعوك إليه أُرشِدْك طريقًا مُستقيمًا. يا أبتِ، لا تُطِعِ الشَّيطانَ فيما يُزَيِّنُ لك مِن الكُفرِ والشِّركِ؛ إنَّ الشَّيطانَ كان عاصيًا لله، مُستَكبرًا عن طاعتِه. يا أبتِ، إني أخافُ أن يمَسَّك عذابٌ مِن الرَّحمنِ إن أصرَرْتَ على كُفرِك، فتكونَ للشَّيطانِ قَرينًا في النَّارِ.

﴿يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾ ﴿45﴾

قال ابن عثيمين رحمه الله: نصيحةُ الابنِ لأبيه أو لأمِّه أو لأقاربه ليست عقوقًا للوالِدَينِ، ولا قطيعةً للأقاربِ، بل هذا مِن بِرِّ الوالِدَينِ وصِلةِ الأقاربِ؛ فالواجِبُ على الإنسانِ أن يبَرَّ والدَيه بنصيحتِهما، وأن يصِلَ أقاربَه بنَصيحتِهم، كما قال الله تعالى لنبيِّه محمَّدٍ ﷺ:(وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ) [الشعراء: 214]، وإذا غَضِبَ الوالدانِ أو الأقاربُ مِن هذه النَّصيحةِ فغَضَبُهم عليهم، وليس عليك منهم شيءٌ، ولا يُعَدُّ إغضابُهم بالنصيحةِ قطيعةً ولا عقوقًا، ولكن يجِبُ عليك أن تكون حكيمًا في النصيحةِ، بأن تتحرَّى الأحوالَ التي يكونون بها أقرَبَ إلى الإجابةِ والقَبولِ، وألَّا تُعَنِّفَ وتَسُبَّ وتَشتُمَ؛ لأنَّ هذا قد ينفِّرُ من تُوجِّهُ إليهم النصيحةَ، فإذا أتيتَ بالتي هي أحسَنُ مُخلِصًا لله عزَّ وجلَّ مُمتَثِلًا لأمرِه، ناصِحًا لعباده؛ كان في هذا خيرٌ كثيرٌ، ولا يضُرُّك غَضَبُ مَن غَضِبَ، ولنا في قِصَّةِ إبراهيمَ عليه السلامُ مع أبيه أُسوةٌ، لما نصَحه إبراهيمُ عليه السلامُ متلطفًا في خطابِه، ماذا قال له أبوه: (قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا) فهل تجدُ غضبًا أشدَّ مِن هذا الغضبِ؟! يقول لابنِه: (لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ويقولُ: وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا طويلًا)، فماذا قال له: (قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا) فاتَّخِذْ من هذه القصةِ عبرةً. ((فتاوى نور على الدرب)) لابن عثيمين (285/12).

قال الرازي: فرتَّب نبيُّ الله إبراهيمُ ﷺ كلامَه في غايةِ الحُسنِ؛ لأنَّه نبَّه أوَّلًا على ما يدُلُّ على المنعِ مِن عبادةِ الأوثانِ، ثمَّ أمَرَه باتِّباعِه فيما يدعو إليه مِن التوحيدِ ونبذِ الشركِ، ثمَّ نبَّه على أنَّ طاعةَ الشيطانِ غيرُ جائزةٍ في العقولِ، ثمَّ ختم الكلامَ بالوعيدِ الزَّاجِرِ عن الإقدامِ على ما لا ينبغي، ثمَّ إنَّه عليه السَّلامُ أورد هذا الكلامَ الحَسَنَ مَقرونًا باللُّطفِ والرِّفقِ؛ فإنَّ قَولَه في مُقَدِّمةِ كُلِّ كلامٍ: (يَا أَبَتِ)، دليلٌ على شِدَّةِ الحُبِّ، والرَّغبةِ في صَونِه عن العِقابِ، وإرشادِه إلى الصوابِ، وختَم الكلامَ بقَولِه: إِنِّي أَخَافُ وذلك يدُلُّ على شِدَّةِ تعَلُّقِ قَلبِه بمصالحِه، وإنَّما فعَل ذلك لوجوهٍ: أحدُها: قضاءً لحَقِّ الأبوَّةِ على ما قال تعالى: (وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا) [الإسراء: 23]. والإرشادُ إلى الدينِ مِن أعظَمِ أنواعِ الإحسانِ، فإذا انضاف إليه رعايةُ الأدبِ والرِّفقِ، كان ذلك نورًا على نور. وثانيها: أنَّ الهاديَ إلى الحقِّ لا بدَّ أن يكونَ رفيقًا لطيفًا، يورِدُ الكلامَ لا على سبيلِ العُنفِ؛ لأنَّ إيرادَه على سبيلِ العُنفِ يصير كالسبَّبِ في إعراضِ المستَمِع، فيكونُ ذلك في الحقيقةِ سَعيًا في الإغواءِ. ((تفسير الرازي)) (545/21).

﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ ﴿46﴾

(قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ) أي: قال أبوه: أتُعرِضُ -يا إبراهيمُ- عن عبادةِ آلهَتي، وتَترُكُها إلى غيرِها. موسوعة التفسير

✉وصَدَّرَه بالهمزةِ؛ لإنكارِ نفْسِ الرَّغبةِ عن آلهتِه على ضرْبٍ من التَّعجُّبِ، وأنَّ آلهَته ما يَنْبغي أنْ يَرْغَبَ عنها أحدٌ، كأنَّها ممَّا لا يرغَبُ عنها عاقلٌ. وفي هذا سُلوانٌ وثلْجٌ لصدْرِ رسولِ اللهِ ﷺ عمَّا كان يَلْقَى مِن مثْلِ ذلك من كُفَّارِ قومِه. الدرر السنية

(لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ) أي: لئِنْ لم تَترُكْ -يا إبراهيمُ- نُصحي، وذِكرَ آلهتي بسُوءٍ لأرجُمَنَّك. موسوعة التفسير

قال ابن عطية: (وقال الحسنُ بنُ أبي الحسنِ: معناه: لأرجُمَنَّك بالحجارةِ، وقالتْ فرقةٌ: معناه لأقتلنَّك، وهذان القولانِ بمعنًى واحدٍ).

قال ابن حيان: فظاظةٌ وقساوةُ قلْبٍ، قابَلَه إبراهيمُ عليه السلامُ بالدُّعاءِ له بالسَّلامِ والأمْنِ، ووعَدَه بالاستغفارِ؛ قضاءً لحقِّ الأُبوَّةِ، وإنْ كان قد صدَرَ منه إغلاظٌ.

(وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا) أي: وابتَعِدْ عني زَمنًا طويلًا. موسوعة التفسير

قال ابنُ عطيةَ: (مَلِيًّا معناه: دهرًا طويلًا، مأخوذٌ مِن الملَوينِ، وهما الليلُ والنهارُ، وهذا قولُ الجمهورِ، والحسنِ، ومجاهدٍ، وغيرِهما).

قال ابن عاشور: وجُملةُ: وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا عطْفٌ على جُملةِ: لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ؛ وذلك أنَّه هدَّدَه بعُقوبةٍ آجلةٍ إنْ لم يُقلِعْ عن كُفرِه بآلهتِهم، وبعُقوبةٍ عاجلةٍ، وهي طردُه من مُعاشرتِه، وقطْعِ مُكالمتِه.

قال البقاعي: في ذلك تَسليةٌ لرسولِ اللهِ ﷺ، وتأسيةٌ فيما كان يلقَى مِن الأذى، ويُقاسي مِن قَومِه مِن العناءِ، ومِن عَمِّه أبي لهبٍ مِن الشَّدائِدِ والبلايا: بأعظَمِ آبائِه وأقرَبِهم به شَبَهًا.

﴿قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ ﴿47﴾

(قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ) أي: قال إبراهيمُ لأبيه: أنتَ في أمانٍ وسَلامةٍ مني، فلا ينالُك مني سوءٌ. موسوعة التفسير

❁كما قال تعالى في صفةِ المؤمنينَ: (وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا) [الفرقان: 63].

وقال سُبحانَه: (وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ) [القصص: 55].

قال الرازي: هذا دليلٌ على جوازِ مُتاركةِ المنصوحِ إذا ظهَر منه اللَّجاجُ، وهذا دليلٌ على أنَّه تَحسُنُ مُقابلةُ الإساءةِ بالإحسانِ.

قال ابن عاشور: وبادرَهُ بالسَّلامِ قبْلَ الكلامِ الَّذي أعقَبَه به؛ إشارةً إلى أنَّه لا يَسوؤه ذلك الهجْرُ في ذاتِ اللهِ تعالى ومَرضاتِه.

(سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي) أي: سأطلُبُ لك مِن ربِّي أن يستُرَ ذُنوبَك، ويتجاوَزَ عن مُؤاخَذتِك بها. موسوعة التفسير

❁ كما حكى تعالى قَولَ إبراهيمَ: (وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ) [الشعراء: 86].

قال ابنُ كثير: (وقد استغفر إبراهيمُ لأبيه مدةً طويلةً، وبعد أن هاجرَ إلى الشامِ وبنى المسجِدَ الحرامَ، وبعد أن وُلِدَ له إسماعيلُ وإسحاقُ -عليهما السلامُ- في قَولِه: (رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ) [إبراهيم: 41]. وقد استغفر المسلِمونَ لقراباتِهم وأهليهم من المشركين في ابتداءِ الإسلامِ؛ وذلك اقتداءً بإبراهيمَ الخليلِ في ذلك، حتى أنزل الله تعالى: (قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ) [الممتحنة: 4]، يعني: إلَّا في هذا القَولِ، فلا تتأسَّوا به. ثمَّ بيَّن تعالى أنَّ إبراهيمَ أقلعَ عن ذلك، ورجع عنه، فقال تعالى: (مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ * وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ) [التوبة: 113، 114]). ((تفسير ابن كثير))

(إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا) أي: إنِّي عَهِدتُ رَبِّي لطيفًا، مُعتَنيًا بي، شديدَ البِرِّ والإكرامِ لي، كثيرَ الإحسانِ إليَّ، وقد هداني وعوَّدَني إجابةَ دُعائي. موسوعة التفسير

من أسباب إجابة الدعاء شعورك بعناية الله ولطفه بك. حياتنا كلها قصة لرحمة الله وبره بنا. عبد الله بلقاسم

﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾ ﴿48﴾

(وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ) أي: وأجتَنِبُكم وآلهَتَكم التي تَعبُدونَها مِن دونِ اللهِ. موسوعة التفسير

(وَأَدْعُو رَبِّي) أي: وأعبُدُ رَبِّي وَحدَه، وأدعوه مُخلِصًا له لا أُشرِكُ به شيئًا. موسوعة التفسير

الدعاء شرعًا: كما قال الخطابي: "معنى الدعاء استدعاءُ العبدِ ربَّه عزَّ وجلَّ العنايةَ، واستمدادُه منه المعونةَ. وحقيقته: إظهار الافتقار إلى الله تعالى، والتبرُّؤ من الحول والقوّة، وهو سمةُ العبودية، واستشعارُ الذلَّة البشريَّة، وفيه معنى الثناء على الله عزَّ وجلَّ، وإضافة الجود والكرم إليه" – شأن الدعاء (ص4).

وقال ابن منظور: "هو الرغبة إلى الله عز وجل". لسان العرب

(عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا) أي: أرجو ألَّا أشقَى بدُعائي لربِّي، وإفرادي له بالعبادةِ، بل أرجو أن يجيبَني، ويتقبَّلَ أعمالي ويُسعِدَني. موسوعة التفسير

كما قال تعالى: (وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ) [الصافات: 99].

"وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا" "أي: ولم أعهد منك إلا الإجابة في الدعاء، ولم تردني قط فيما سألتك" حتى أنت يا صاحب الحاجة ثق بالله.... قال ابن كثير –رحمه الله–.

﴿فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾ ﴿49﴾

(فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ) أي: فلمَّا اجتنَبَ إبراهيمُ قَومَه، واجتنَب عبادةَ أصنامِهم وهاجَر؛ رزَقْناه ابنَه إسحاقَ وحفيدَه يعقوبَ. موسوعة التفسير

قال ابن الجوزي: (قال المفسّرون: هاجَر عنهم إلى أرضِ الشَّامِ، فوهَب اللهُ له إسحاقَ ويعقوبَ، فآنسَ الله وحَشَته عن فراقِ قَومِه بأولادٍ كرام).

❁المكان الذي لايعترف بحق ولاينصف أهله فهجرهم خير ... ولاتكثر عليهم التأسف فمفارقتهم مكسب ... مها العنزي

❁اعتزالُ أماكنِ الفسادِ ليسَ انغلاقاً ولا تزمتاً، بل هو بابٌ عظيمٌ من أبوابِ هباتِ الله وعطاياه... عادل صالح السليم

كما قال تعالى: وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ * رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ [الصافات: 99، 100].

وقال سُبحانَه: وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ * وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ [الأنبياء: 71- 72].

وقال عزَّ وجلَّ: وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ [هود: 71].

وفي ﴿عَسَى﴾ ترجٍّ في ضمنِه خوف شديد، ولما فارقَ الكفارَ وأرضَهم أبدله منهم أولادًا أنبياء والأرض المقدَّسة، فكان فيها، ويَتردَّد إلى مكة، فوُلد له إسحاق وابنه يعقوب تسليةً له وشدًّا لعضده، وإسحاق أصغر مِن إسماعيل، ولما حمَلت هاجر بإسماعيل غارتْ سارة ثم حمَلت بإسحاق. الألوكة

(وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا) أي: وكلًّا مِن إسحاقَ ويعقوبَ جعَلْناه نبيًّا. موسوعة التفسير

قال أبو السعود: قولُه: (وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا) لعلَّ تَرتيبَ هِبَتِهما على اعتزالِه هاهنا؛ لبَيانِ كمالِ عِظَمِ النِّعمِ الَّتي أعطاها اللهُ تعالى إيَّاهُ، بمُقابَلةِ مَنِ اعتزَلَهم من الأهلِ والأقرباءِ؛ فإنَّهما شَجَرتا الأنبياءِ، لهما أولادٌ وأحفادٌ، أولو شأنٍ خطيرٍ، وذُو عددٍ كثيرٍ.

ذكر ابن عاشور لطيفة قال: إنَّما اقتصَرَ على ذِكْرِ إسحاقَ ويعقوبَ دونَ ذِكْرِ إسماعيلَ، فلم يقُلْ: (وهَبْنا له إسماعيلَ وإسحاقَ ويعقوبَ)؛ لأنَّ إبراهيمَ لما اعتزَلَ قومَه، خرَجَ بزوجِه سارةَ قريبتِه، فهي قد اعتزلَتْ قومَها أيضًا إرضاءً لربِّها ولزوجِها، فذكَر اللهُ الموهبةَ الشَّاملةَ لإبراهيمَ ولزوجِه؛ وهي أنْ وهَبَ لهما إسحاقَ وبعْدَه يعقوبَ، ولأنَّ هذه الموهبةَ لما كانت كِفاءً لإبراهيمَ على مُفارقتِه أباهُ وقومَه، كانتْ مَوْهبةَ مَن يُعاشِرُ إبراهيمَ ويُؤنِسُه، وهما إسحاقُ ويعقوبُ.

❁اعتزال المعاصي وأهلها سبب لنيل نعمة الذرية وصلاحهم. عبد الله بلقاسم

❁ اعتزال المعصية، ومكان المعصية، وأهل المعصية، – لأجل الله تعالى – يفتح للعبد باباً من الهبات والعطايا التي تسعده وتفرح قلبه وروحه. فوائد القرآن

﴿وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ ﴿50﴾

(وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا) أي: وأعطَينا إبراهيمَ وإسحاقَ ويَعقوبَ عِلمًا نافِعًا، وأعمالًا صالحةً، ورزقًا واسعًا، وذريَّةً كثيرةً، وشرفًا عظيمًا، وغيرَ ذلك من الخيراتِ. موسوعة التفسير

كما قال تعالى: وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ [العنكبوت: 27].

(وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا) أي: وجعَلْنا لهم ثناءً حَسَنًا، وذِكرًا جميلًا عاليًا صادقًا، مُستَمِرًّا مَنشورًا بين النَّاسِ إلى يومِ القيامةِ. موسوعة التفسير

❁الذي يجعل لك الذكر الحسن بين الناس، هو الله عندما يجد طويتك مطابقة لعلانيتك، عندها يضع محبتك بين عباده. مها العنزي

كما قال تعالى حاكيًا دُعاءَ إبراهيمَ عليه السلامُ: (وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ) [الشعراء: 84].

وقال سُبحانَه: (وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ * إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ) (35) [ص: 45، 46].

قال ابن القيم: قال الله تعالى: (وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا) المرادُ باللِّسانِ هاهنا: الثَّناءُ الحَسَنُ. فلمَّا كان الصِّدقُ باللِّسانِ، وهو محلُّه، أطلَقَ اللهُ سُبحانَه ألسِنةَ العبادِ بالثَّناءِ على الصَّادقِ؛ جزاءً وِفاقًا، وعبَّرَ به عنه.

✉فيه إضافةُ اللِّسانِ إلى الصِّدقِ، ووصْفُه بالعُلوِّ؛ للدَّلالةِ على أنَّهم أحِقَّاءُ بما يُثْنون عليهم، وأنَّ محامِدَهم لا تَخْفَى على تباعُدِ الأعصارِ، وتحوُّلِ الدُّولِ، وتبدُّلِ المِلَلِ والنِّحلِ. الدرر السنية

قال ابن القيم: مِن أعظَمِ نِعَمِ اللهِ على العَبدِ: أن يَرفَعَ له بينَ العالَمينَ ذِكرَه، ويُعلِيَ قَدْرَه؛ ولهذا خَصَّ أنبياءَه ورُسُلَه مِن ذلك بما ليس لِغَيرِهم، كما قال تعالى: (وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ * إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ) [ص: 45، 46]، أي: خصَصْناهم بخَصيصةٍ، وهو الذِّكرُ الجَميلُ الذي يُذكَرونَ به في هذه الدَّارِ -وهذا على قَولٍ في الآيةِ- وهو لِسانُ الصِّدقِ الذي سأله إبراهيمُ الخَليلُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ حيث قال: (وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ) [الشعراء: 84]، وقال سُبحانَه وتعالى عنه وعن بنيه: (وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا) [مريم: 50]، وقال لنبيِّه ﷺ: (وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ) [الشرح: 4]؛ فأتباعُ الرُّسُلِ لهم نَصيبٌ مِن ذلك بحَسَبِ ميراثِهم مِن طاعتِهم ومُتابعتِهم، وكُلُّ مَن خالفَهم فإنَّه بَعيدٌ مِن ذلك بحسَبِ مُخالفتِهم ومَعصيتِهم.

قال الله تعالى حاكيًا عن إبراهيمَ: (فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ) قال بعضُ الحُكَماءِ: (من هاجر لطَلَبِ رِضا اللهِ عَزَّ وجَلَّ، أكرمَه اللهُ عزَّ وجلَّ في الدُّنيا والآخرةِ)، كما

أنَّ إبراهيمَ عليه السَّلامُ هاجر مِن قَومِه في طلَبِ رِضا الله تعالى عنه، فأكرَمَه الله تعالى، وعوَّضه أولادًا مؤمنينَ أنبياءَ، فما خسِر على اللهِ أحدٌ ترَك الكفَّارَ الفسقةَ لوجهِه، واللَّهُ سبحانَه يَجْزي العبدَ على عملِه بما هو مِن جنسِ عملِه، ومَن تَرَك لِلَّهِ شيئًا عَوَّضه اللَّهُ خيرًا منه. الدرر السنية

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾ ﴿51﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قبلَها: قال ابن عاشور: أنَّه أفضَتْ مُناسَبةُ ذِكرِ إبراهيمَ ويَعقوبَ -عليهما السَّلامُ- إلى أن يُذكَرَ موسى عليه السلامُ في هذا الموضع؛ لأنَّه أشرَفُ نبيٍّ مِن ذُرِّيةِ إسحاقَ ويعقوبَ، عليهما السَّلامُ

(وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى) أي: واتْلُ -يا محمَّدُ- في القُرآنِ على قَومِك خبَرَ موسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ. موسوعة التفسير

(إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا)

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

1- قراءةُ مُخْلَصًا بفتحِ اللَّامِ، أي: إنَّ موسى أخلصَه اللهُ، واختاره لرسالتِه، وجعَلَه نبيًّا مُرسَلًا، خالِصًا مِن الدَّنَسِ.

2- قراءةُ مُخْلِصًا بكسرِ اللَّامِ، أي: إنَّ موسى كان يُخلِصُ لله في عبادتِه، ولا يُرائي بأعمالِه أحدًا.

(إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا) أي: إنَّ موسَى كان الله تعالى قد اختاره لرسالتِه وتَكليمِه وعبادتِه، وجعَله خالصًا مِن الدَّنَسِ؛ وذلك لإخلاصِه لله في عبادتِه. موسوعة التفسير

كما قال تعالى: (قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي) [الأعراف: 144].

قال ابنُ جرير: (أنَّه كان صلَّى الله عليه وسلم مُخلِصًا عبادةَ الله، مُخلَصًا للرِّسالةِ والنبوَّة).

(وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا) أي: وكان موسى رسولًا إلى بني إسرائيلَ والقِبطِ، ونبيًّا رفيعَ القَدرِ يُوحي اللهُ إليه. موسوعة التفسير

﴿وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا﴾ ﴿52﴾

(وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ) أي: وكلَّمْنا موسَى بصَوتٍ يَسمَعُه مِن ناحيةِ جَبَلِ طُورِ سَيناءَ الواقِعِ على يمينِ موسى، حينَ أقبَلَ مِن مَدينَ مُتوجِّهًا إلى مِصرَ.

قال أبو حيان: في قولُه تعالى: (وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا) فيه إيجازٌ بالحذفِ، وتَقديرُ الكلامِ: وناديناهُ حينَ أقبَلَ مِن مدينَ، ورأى النَّارَ مِن الشَّجرةِ، وهو يُريدُ مَن يَهْديه إلى طريقِ مصرَ.

كما قال تعالى: (فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى * إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى * وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى * إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي * إِنَّ السَّاعَةَ

آَتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى * فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى) [طه: 11- 16].

قال ابن كثير: في قوله تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ أَيْ: فَلَمَّا أَتَاهَا رَأَى مَنْظَرًا هَائِلًا عَظِيمًا، حَيْثُ انْتَهَى إِلَيْهَا، وَالنَّارُ تَضْطَرِمُ فِي شَجَرَةٍ خَضْرَاءَ، لَا تَزْدَادُ النَّارُ إِلَّا تَوَقُّدًا، وَلَا تَزْدَادُ الشَّجَرَةُ إِلَّا خُضْرَةً وَنَضْرَةً، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ فَإِذَا نُورُهَا مُتَّصِلٌ بِعَنَانِ السَّمَاءِ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُهُ: لَمْ تَكُنْ نَارًا، إِنَّمَا كَانَتْ نُورًا يَتَوَهَّج. وَفِي رِوَايَةٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: نُورُ رَبِّ الْعَالَمِينَ. فَوَقَفَ مُوسَى مُتَعَجِّبًا مِمَّا رَأَى. ابن كثير

يسير موسى على قدميه حافيا من مصر الى مدين، لا يملك قوت يومه، ويجلس يدعوا ربه ويقول رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ، ثم يعمل مدة عشر سنوات في رعاية الغنم، ويسير باهله عائدا الى مصر، فيضل الطريق، ويعاني شدة البرد، والمخاوف التي تعترض المسافر في شدة الظلام الدامس ،ثم تأتي البشارة لتشرق وتنجلي معها الظلمات والصعاب، وتمسح بدفئها حياة ملئت بالبرد ، نداء واحد كان كفيل بجبر كل كسر اصاب النفس، حملها الى اعلى عليين، فتنتهي الآلآم وتحل الافراح ، بالاجتباء والاصطفاء ، وحمل الرسالة يا موسى نداء الملك، سعادة لا شقاء بعدها أبداً.

(وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا) أي: وأدنَيْنا موسى، فسَمِع كلامَ اللهِ، وخاطَبه عن قُربٍ، بلا واسِطةٍ. موسوعة التفسير

كما قال تعالى: وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا [النساء: 164]

قال ابن تيميه: ذَكَر مناداتَه لموسى عليه السَّلامُ ومناجاتَه إيَّاه في مواضِعَ مِن القرآنِ، ولم يَذكُرْ أنَّه فعَل ذلك بغيرِه مِن الأنبياءِ، وهذا ممَّا أجمع عليه المسلِمونَ وأهلُ الكتابِ: أنَّ تكليمَ اللهِ تعالى لموسى من خصائِصِه التي فضَّله بها على غَيرِه من الأنبياءِ والرُّسُلِ.

قال القصاب: في قَولِه تعالى: (وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا) حُجَّةٌ على مَن يُنْكِرُ أنَّ اللهَ جلَّ جلالُه بنَفسِه على العَرشِ، وأنَّ عِلْمَه في الأرضِ؛ إذ لو كان بنَفسِه في كلِّ مَوضعٍ -كما يزعُمونَ- ما كان لقَولِه: (وَقَرَّبْنَاهُ) مَعنًى، ولَمَا كان لموسى فضيلةٌ على غَيرِه؛ إذِ المعنى الذي يَذهَبُ إليه يستوي جميعُ النَّاسِ فيه -كافِرُهم ومُؤمِنُهم- وليس لِمَا يتأوَّلُه مِن أنَّ القُرْبَ قُربُ الطَّاعةِ -لَمَّا قَرَّبَه بالمناجاة- خَصيصةٌ؛ ولذا رُوِيَ في الخبر: (أنَّه قَرَّبَه حتى سَمِعَ صريفَ القَلَمِ).((النكت الدالة على البيان)) للقصَّاب (254/2).

قال ابن القيم: النِّداءُ والنِّجاءُ أخَصُّ مِنَ التَّكليمِ؛ لأنَّه تكليمٌ خاصٌّ؛ فالنِّداءُ تكليمٌ مِن البُعدِ يَسمَعُه المنادى، والنِّجاءُ تَكليمٌ مِن القُربِ.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا﴾ ﴿53﴾

(وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا) أي: وآتَينا موسى مِن رَحمتِنا له إجابةَ سُؤالِه، فجعَلْنا أخاه هارونَ نبيًّا مِثلَه؛ لِيُعينَه. موسوعة

قال ابن عاشور: وإنَّما جُعِلَتْ تلك الهِبةُ من رحمةِ اللهِ؛ لأنَّ اللهَ رحِمَ مُوسى؛ إذ يسَّرَ له أخًا فصيحَ اللِّسانِ، وأكمَلَه بالإنباءِ حتَّى يُعْلَمَ مُرادُ مُوسى ممَّا يُبلِّغُه عن اللهِ تعالى.

❁ كما قال تعالى حكايةً عنه: وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي * هَارُونَ أَخِي * اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي * وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي * كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا * وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا * إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا * قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى [طه: 29 - 36].

❁ وقال سُبحانه حكايةً عنه: وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ * قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ [القصص: 34- 35].

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾ ﴿54﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها: قال البقاعي: أنَّه لَمَّا كان إسماعيلُ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- هو الذي ساعد إبراهيمَ عليه السَّلامُ في بناءِ البَيتِ الذي كان مِن الأفعالِ التي أبقَى اللهُ بها ذِكْرَه، وشَهَر أمْرَه، وكان مُوافِقًا لِموسى عليه السَّلامُ في ظُهورِ آيةِ الماءِ الذي به حياةُ كُلِّ شَيءٍ، وإن كانت آيةُ موسى عليه السَّلامُ انقَضَت بانقضائِه، وآيتُه هو باقيةً إلى أن يَرِثَ اللهُ الأرضَ ومَن عليها- عَقَّب ذِكْرَه بذلك. الدرر السنية

(وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ) أي: واتْلُ -يا مُحمَّدُ- في القرآنِ على قَومِك خبَرَ إسماعيلَ بنِ إبراهيمَ عليهما الصَّلاةُ والسَّلام. موسوعة التفسير

(إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ) أي: إنَّ إسماعيلَ كان صادِقًا في وعودِه لرَبِّه وللنَّاسِ، يَفي بوَعدِه، ولا يُخلِفُه. موسوعة التفسير

قال الشنقيطي: (ممَّا يُبَيِّنُ من القرآنِ شِدَّةَ صِدقِه في وعدِه: أنَّه وعَدَ أباه بصبرِه له على ذبحِه، ثمَّ وفى بهذا الوعدِ، ومن وفى بوَعدِه في تسليمِ نفسِه للذبحِ، فإنَّ ذلك من أعظمِ الأدلَّةِ على عظيمِ صِدقِه في وعدِه، قال تعالى: فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ [الصافات: 102]، فهذا وعدُه، وقد بيَّن تعالى وفاءَه به في قَولِه: فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ [الصافات: 103]). ((أضواء البيان)) (437/3).

(وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا) أي: وكان رَسولًا ونبيًّا، رفيعَ القَدرِ يُوحي اللهُ إليه. موسوعة التفسير

قال القرطبي: (وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا قيل: أُرسِلَ إسماعيلُ إلى جُرْهُم).

﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾ ﴿55﴾

(وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ) أي: وكان يأمُرُ أهلَه بإقامةِ الصَّلاةِ، وإيتاءِ الزَّكاةِ. موسوعة التفسير

(وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا) أي: وكان محمودًا عندَ اللهِ في أعمالِه، ارتضاه اللهُ، وجعَلَه من الخواصِّ المقَرَّبينَ؛ لاجتهادِه فيما يُرضيه، فرضِي ربُّه عنه، ورضِيَ هو عن رَبِّه. موسوعة التفسير

قال الزمخشري: فيه أنَّ حَقَّ الصَّالحِ ألَّا يألوَ نُصحًا للأجانبِ، فضلًا عن الأقاربِ والمتَّصِلينَ، وأن يُحظِيَهم بالفوائدِ الدِّينيةِ، ولا يفرِّطَ في شَيءٍ مِن ذلك.

قال ابن عثيمين: ذكَرَ اللهُ تعالى عن إسماعيلَ عليه السَّلامُ أنَّه كان يأمُرُ أهلَه بالصَّلاةِ والزكاة، وكان عندَ ربِّه مَرضيًّا؛ فالإنسانُ مَسؤولٌ عن أهلِه، مسؤولٌ عن تربيتِهم، حتى ولو كانوا صِغارًا إذا كانوا مميِّزينَ، أمَّا غيرُ المميِّزِ فإنَّه يُؤمَرُ بما يتحمَّلُه عَقلُه.

عن الحَسَنِ قال: (من كان له واعِظٌ مِن نَفسِه، كان له مِنَ اللهِ حافِظٌ، فرَحِمَ اللهُ مَن وعَظَ نَفسَه وأهلَه، فقال: يا أهلي، صلاتَكم صلاتَكم، زكاتَكم زكاتَكم، جيرانَكم جيرانَكم، مساكينَكم مساكينَكم؛ لعلَّ الله أن يرحَمَكم يومَ القيامةِ؛ فإنَّ الله عزَّ وجَلَّ أثنى على عبدٍ كان هذا عَمَلَه، فقال: (وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا). أخرجه ابن أبي الدنيا في ((النفقة على العيال)).